الوليد بن عقبة في كتاب عثمان

الأستاذ محمود أبو ريه

مما لا يكاد يخفى على الباحث المحقق أن أدق فترة في التاريخ الإسلامي هي التي بدأت باغتيال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتولي عثمان أمر الخلافة بعده. ذلك أن تيار الإسلام الزاخر قد أخذ بعد مقتل عمر يتحول عن مجراه الذي كان يتدفع فيه بالخير والهدى والسلام على عهد الرسول صلوات الله عليه وصاحبيه إلى اتجاه آخر. وكأن الإسلام الذي اعتز بإسلام عمر وتهدى في سيره قد انقلب يعتسف الطريق بعد أن انقلب هذا الخليفة العظيم إلى ربه وعلى أن هذه الفترة على ما وصفنا، فإنها لم تؤرخ على ما يجب أن يكون عليه التاريخ الصحيح، وذلك أن كل مؤرخ قد كبّل فكره بما وضعه السلف من قيود، ووقف عندما خطوه من حدود فلا يبحث بعلم ولا يفكر بعقل. وكان أثقل تلك القيود هو ما قرروه من عدالة الصحابة جميعاً، حتى جعلوا الطلقاء في مرتبة المهاجرين، والمؤلفة قلوبهم في منزلة الأنصار المخلصين، والمنافقين في مقام الأتقياء الصالحين.

وعلى ذلك جرى الخلف وراء السلف يتبع بعضهم بعضاً بلا بصر ولا بصيرة معتمدين على مجرد النقل عنهم، منصرفين عما يقضي به العقل والمنطق في نقد ما وصل إلينا منهم.

إنه لا يمكن المؤلف المحقق أن يؤرخ هذه الفترة الدقيقة إلا إذا تزوّد بزاد كبير من مواد التاريخ، وحرر عقله من رق التقليد، واستعان في النقد والتحليل بنظر بعيد، وأن يسبر الوقائع كما يقول ابن خلدون. بمعيار الحكمة وأن يقف على طبائع الكائنات ويحكم النظر والبصيرة في الأخبار».

ومما يجب على من يؤرخ هذه الفترة أن يقف على طبائع الجاهلية عامة وما كان من نزاع وتخاصم بين بني أمية وبني هاشم خاصة، وأن يدرك أن ما كان بينهما في الجاهلية لم يطفه الإسلام جذوته، ولم يخفف الهدى المحمدي حدته، وأن يميز بين الذين آمنوا إيماناً صادقاً من الذين أسلموا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم.

هذا ما يجب على كل من يريد أن يؤرخ هذه الفترة الدقيقة تأريخاً صادقاً، ومن يفته شيء من ذلك فإن عمله يخرج ناقصاً

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر

وحيداً، وما قولي كذا ومن الصبر!

ومن فنون الأدب فن عالي قيم اشتهر به كتاب عالميون وكان لأدباء العرب فيه نصيب كبير، وهو فن «الظرف» أو قل باب الفكاهة والروح الفكري. وقد امتاز بهذا الفن بين الانكليز «تشارز ديكنز» و«برنارد شو»، وبين الفرنسيين «أناتول فرانس»؛ ويقابل هؤلاء من بين الأدباء العرب الجاحظ، بحيث يضاهيهم بالفصل، وذلك بما في كتاباته من رقة وسرح، وبما في فكاهاته من لذع خفي، وظرف محكم، لحمتهما وسداها الفكرة المعمقة.

وهنالك لونان عاليان من ألوان الأدب، طرقهما الأدباء العرب فأبدعوا، وكان لهم بذلك تأثير كبير في الآداب الأجنبية. فأحدهما «الأدب الصوفي»، وقد برز فيه ابن الفارض، وحوله زمرة لا يستهان بها من المتصوفين الذين يعدون عالميين في أدبهم الصوفي؛ والآخر فن تأدية الحكمة على لسان الحيوان، وقد تجلى هذا الفن في أدب ابن المقفع، وانتقل تأثيره إلى الشاعر الفرنسي «لافونتين».

بإمكاننا أن نلمس من هذا العرض السريع، مدى أهمية الأدب العربي بالنسبة إلى الآداب العالمية، تلك الآداب التي عالجت قضايا الإنسان، ووصفت نفسية الإنسان، فكانت لنتاجه الحية الناطقة في كل مكان وكل زمان.

ولئن لجأ بعض الأدباء العالميين لتحقيق هذه الغاية، إلى وضع المسرحيات، فما ذلك إلا لأن بيئتهم الخاصة حدت بهم إلى هذه الوسيلة، ويسرت لهم تحقيقها؛ أما أدباء العرب فقد عوضوا عن هذا النقص الطفيف بلجوئهم إلى وسائل أخرى لا تقل عنها أهمية أو قيمة، مما أتينا على ذكره، فأنتجوا بذلك أدباً عامراً بالمعاني والعناصر الإنسانية التي بإمكانها أن تتجاوب مع نفس كل إنسان. بل لقد رأينا كيف أنه عندما سمحت البيئة الاجتماعية بطرق فن الأدب التمثيلي عند العرب، برز شوقي بمسرحياته الخالدة، فسد ذلك الفراغ العارض بكل جدارة.

وحسب الأدب العربي أعلامه الخالدون عمر بن أبي ربيعة وأبو نواس والمتنبي وأبو العلاء وابن الرومي وشوقي، حتى يستوي في مرتبة الآداب العالمية الخالدة.

(بيروت)

محمد رفعي

وتاريخه يظهر عقيما وإن سمى بين العامة تاريخاً ! !

ونطق بهذا النبذ من القول أن نرسل كلمة صغيرة عن كتاب (عثمان) أحد أجزاء الفتنة الكبرى الذي يتوفر على إخراجها الدكتور طه حسين بك .

تناولت هذا الكتاب بعد أن فرغ الناس من الكتابة عنه والبحث فيه فإذا بي تلقاء نمط جديد في دراسة التاريخ لم أعهد مثله فيما كتب عن تاريخ صدر الإسلام بحثاً وتحليلاً اللهم إلا كتاب (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين بك ، فهو صنوه في البحث ، وقريبه في التحقيق ، هذا في تاريخ الحياة العقلية ، وذاك في تاريخ الحياة السياسية .

وهذا الكتاب لا يفهمه حق الفهم إلا من حرر عقله وآثر الحق على هواه . وإذا كان الكلام من هذا الكتاب النفيس قد يعد الآن من التكرار بعد أن تولاه الكتاب من قبل بالتقريظ والثناء الطيب فإني أحدث اليوم من أمر وجدته فيه ولم أر بدءاً من الكلام عنه .

ذلك أن الدكتور طه حسين بك قد استراب فيما حملته الرواية من أن الوليد بن عقبة قد صلى بالناس فريضة الصبح وهو ثمل ثم التفت إلى من معه وقال : أزيدكم ؟ فقال إن هذه القصة مخترعة من أصلها فيما أعتقد[1] .

ولكن هذا الخبر أثبته كبار المؤرخين وبخاصة من كان منهم من ثقات المحدثين كالبخاري وابن عبد البر والذهبي وابن كثير ، وآخر من أيد هذا الخبر مجتهد اليمن بن الوزير في كتابه (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم) فانه على ما أطال في الدفاع عن رجال الحديث الذين لا يجوزون الكبائر على الصحابة ، وما بالغ من ذلك فانه لم يستطع أن ينكر ما نسب إلى الوليد من أنه صلى الصبح وهو سكران ومما جاء في كتابه هذا[2] :

« قال إمام أهل الحديث أبو عمر بن عبد البر في كتابه (الاستيعاب) في معرفة الصحابة من الوليد :

« له أخبار فيها نكارة وشناعة تدل بقطع على سوء حاله » وبعد أن بيّن ابن عبد البر : أن أخباره في شرب الخمر ومنادمته لأهلها كثيرة ، ذكر أنه صلى الفجر بأهل الكوفة ثم قال أزيدكم

وإذا كان الدكتور قد قرر بحق أن إسلام الوليد كان رقيقاً وأنه غش النبي ، فان وقوع مثل هذا الأمر ليس بغريب منه

(١) ص ٣٦ من كتاب عثمان (٢) ص ١٢٦ ج ١

على أن ما فعله الوليد من شربه الخمر وصلاته وهو سكران قد استفاض بين الناس حتى أكثروا من القول فيه ويبدو أن عثمان قد تباطأ في إقامة الحد عليه فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عبيد الله بن عدي أخبره أن المسور بن مخرم وعبد الرحمن بن الأسود قالا ما يمنعك أن تكلم خالك عثمان في أخيه الوليد بن عقبة[1] فقد أكثر الناس (أي من تركه إقامة الحد عليه) فانتصبت لعثمان حين خرج إلى الصلاة فقلت له : إن لي إليك حاجة وهي نصيحة ، فقال : أيها المرء ، أعوذ بالله منك ، فانصرفت فلما قضيت الصلاة جلست إلى المسور وإلى عبد يغوث فحدثتهما بالذي قلت لعثمان ، فقالا : قد قضيت الذي كان عليك ! فبينما أنا جالس معهما إذ جاء رسول عثمان ، فقالا : قد ابتلاك الله ! فأتيته ، فقال : ما نصيحتك ! فقلت : إن الله بعث محمداً وأنزل عليه الكتاب ، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله (ص) وهاجرت الهجرتين وصحبت رسول الله (ص) ورأيت هديه . وقد أكثر الناس في شأن الوليد فحق عليك أن تقيم عليه الحد . وبعد أن أجاب عثمان بقول يذكر فيه إسلامه وموقفه من النبي (ص) وصاحبيه ، قال : ما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم ؟ فأما ما ذكرت من شأن الوليد بن عقبة فسنأخذ فيه بالحق إن شاء الله . ثم أمر بجلد الوليد فجلد أربعين جلدة في أصح الروايات ؛ فقد خرج مسلم من طريق أبي سلمان قال : « شهدت عثمان أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان أنه قد شرب الخمر والذي تولى جلده عبد الله بن جعفر .

ويتبين من سياق الأحداث واستقراء الأخبار أن عثمان رضي الله عنه لم يقم الحد على أخيه إلا لأنه صلى بالناس وهو سكران ، لا لأنه شرب الخمر فحسب ! إذ لو أقيم عليه حد الخمر فقط لوقع ذلك في كل يوم لأنه كان مدمن خمر !

هذا ما رأى بيانه ، ونرجو أن يوفق الدكتور في إتمام سائر الأجزاء التي رأى أن يكسرها على تاريخ الفتنة الكبرى ، وأن يخرج سابق من عمله على غرار هذا الجزء الذي بين أيدينا .

ولعله بعد ذلك يتخذ سبيله إلى تاريخ الأدب العربي تاريخاً مستفيضاً مفصلاً حتى يؤدي ما عليه من دين للغة العربية وآدابها .

المنصورة محمود أبو رية

(١) وعقبة هو ابن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان أخا عثمان لأمه ، وكان عثمان ولاه الكوفة بعد عزل سعد بن أبي وقاص سنة ٢٥ هـ .